٢ ـ فن المسرح (*)

(تحية للأستاذ الفاضل زكي طليمات)

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

المسرح وقيمته التصويرية:

ماذا يصور المسرح ؟ إنه يصور ماأودعه المؤلف في مسرحيته من أفكار وتجارب . ولما كان لهذا الفن — كما لكل فن — أسلوب خاص في التصوير كان من اللازم أن تكون تلك الأفكار والتجارب مما يمكن تصويره بهذا الأسلوب دون سواه . والمفروض أن طريقة التأليف المسرحي تجري — فينا — على النسق الآتي : يلتقط خيال المؤلف بعض احتمالات الحياة ويكوّن منها مجموعة مستقلة من الحوادث المتصلة تستحيل في ذهنه إلى حوادث مرتبة ترتيباً معيناً (Plot) وهذه يعبر عنها بواسطة شخصيات (Characters) وهؤلاء يعبر عنهم شعورهم وتفكيرهم عن طريق ما يلفظون به من قول (diction) .

فإذا جاز لنا أن نقارن بين الفنون عامة من حيث أساليب التصوير فإذا يكون شأن المسرح ؟ .

المشاهد أن من الفنون ما يجنح للخيال المبهم ومنها ما يهبط إلى الواقع السطحي، بينما المسرح — فيما يبدو — يشكل التجارب والأفكار المجردة في قوالب ملموسة دون أن يقلل من روعة ما كانت عليه « خيالا » أو يزري بما صارت إليه « واقعاً » . يقول (آبركرمبي) وهو يشرح رأي أرسطو بهذا الصدد ما مؤداه : « إن الفن المسرحي إنما وجد لكي يعطي صورة ومادة لضرب خاص من التنبه الخيالي . ووجود الفن يستلزم وجود التنبه الخيالي ... ومن الممكن أن نصور الحياة كما هي تماماً ولكن الأمر الذي يحرك الشعور هو أن نتصور الحياة كما يمكن أن تكون وهنا يصبح الخيال قوة قادرة على الإيحاء ... وربما كان عمل الخيال لا يعدو مجرد تقطير الأحداث الواقعية باستبعاد جميع نواحيها السخيفة ... » .

(*) راجع العدد ٧٥٤

فهل لنا أن نتخذ من هذه الواقعية الفنية مبرراً قوياً لتفضيل الفن المسرحي على غيره ؟ المصطلح عليه أنه من الصعب — إن لم يكن من العبث — أن نفاضل بين الفنون بإخضاعها كلها لمقاييس جمالية واحدة بل ينبغي أن نراعي « الخامة » التي يستعملها كل فن على حدة . ومع هذا فقد نستطيع المقارنة بينها بالمقارنة بين هذه الخامات المختلفة وحينئذ يتبين لنا بجلاء أن خامة المسرح أغناها عنصراً وأقواها قدرة على التصوير الحيّ . فالمسرح بعناصره الثلاثة — أي التأليف والإخراج والتمثيل وأدواتها ووسائلها الخاصة المتآلفة — يمتاز على الفنون التي تصور « الجسم » — كالنحت — بالحياة والحركة ... ويمتاز على الفنون التي تصور « الشكل » — كالتصوير اليدوي والآلي — بأبعاده الثلاثة ... ويمتاز على الفنون التي تصور « الحركة » — كالرقص والبانتوميم والمايم (١) — بالإفصاح الذي لا يغني عنه الإيماء ... ويمتاز على الفنون التي تصور « الفعل » — كالشعر والقصة — بالتجسيد والتحديد ... أكثر من هذا فالمسرح يمتاز على الفنون جميعاً في تصوير « اللحظات الفنية » التي هي مناط الاهتمام من كل فن . بيان ذلك أننا إذا أردنا — فرضاً — تصوير حقيقة كبرى كالموت — وليكن موت أحد الفنانين مثلا — بشتى الطرق الفنية فإن الفنون المكانية — أي التي تشغل من الوجود مكاناً ما كالنحت — ستتمثل اللحظة الفنية في غمضة عينية ... والفنون الزمانية — أي التي تشغل من الدهر زماناً ما كالموسيقى — ستتمثل اللحظة الفنية في صوته وهو يتهدج ويخفت قبيل موته .. أو نحو ذلك ... بينما المسرح سيتمثل اللحظة الفنية في كل ما بينه وبين الحياة من صلة : فمشهد يظهر شعور تلاميذه وعارفيه بالألم . . . ومشهد يظهر احتفال الناس بآثاره . . . ومشهد يظهر ما ألم به من ظلم في حياته . ومشهد يظهر ما صار إليه من مجد . وهكذا .

بمثل هذه المزايا التي لا تتوفر لفن آخر استأثر التصوير المسرحي دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون بتصوير الطبيعة البشرية والدوافع الإنسانية على مدى العصور . فمن تصوير للنزعات العنيفة قديماً إلى تصوير للمثاليات في عهود الرومانتيكية إلى

(١) البانتوميم والمايم من فنون الرومان في العصور القديمة يقومان على التمثيل الراقص بغير كلام إطلاقاً

تصوير للواقعية المجردة من الرياء أو العرف الاجتماعي ثم الكشف عن مكنونات العقل الباطن في العصر الحديث .

وبمثل هذه المزايا كان للتصوير السرحي دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون فضل احتضان الآراء والنظريات الفلسفية والنقدية على مدى العصور . وليس أدل على ذلك من أن المسرح أمكنه حتى في العصور الاستبدادية أن يردد — وحده — ما يشاء من الآراء بفضل قدرته البارعة على تصوير ما يشاء من الأجواء . ولنضرب مثالا واحداً لذلك بمهد الديكتاتورية الرومانية القديمة فقد استطاع بعض المسرحيين وقتذاك أن يصوروا كثيراً من الأجواء الحرة الطليقة — نقلا عن اليونان — بينما تشكلت سائر الفنون الأخرى قسراً بما يوائم سياسة تلك الديكتاتورية البغيضة .

كذلك انفرد التصوير المسرحي دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون بالتوغل في أعماق النفس البشرية وإظهار دفائنها التي لا نكاد نصدق بها أحياناً . من ذلك مثلا « عاطفة الكراهية » التي يقال إنها تتولد في الخفاء بين الأب وابنه تمشياً مع قانون البقاء . فهذه العاطفة لم يكتشف مجرد احتمال وجودها إلا منذ بدأ فرويد وأتباعه في القرن الماضي يهتدون إليها .. ومع هذا فالمسرح يصورها منذ مئات السنين ! فبالرغم مما يبدو في المسرحيات — نقلا عن مظاهر الحياة — من توقير الأبناء لآبائهم وعطف الآباء على أبنائهم (أو ما يسمونه عقدة إلكترا وعقدة أوديب نسبة إلى تعلق الفتاة إلكترا بأبيها القائد أجاممنون وتعلق الملك أوديب بابنتيه أنتيجونا وإسمينا في الأساطير والروايات الإغريقية) إلا أننا نجد بالاستقراء أن للآباء أوفى نصيب من السخرية والتحقير في الروايات الهزلية كما نجد أن معظم الروايات — هزلية وغير هزلية — تدور حول شاب يحب فتاة ويقوم أبوها أو أبوه بدور (العاذل) أو ما شاكل ذلك . وربما لا نجد تفسيراً لهذا كله إلا عاطفة الكراهية التي أسلفنا الإشارة إليها .

ولكن ... قد يقال إن التصوير المسرحي مهما بلغت قيمته في العصور السالفة ذات الطابع الهادىء فقد أصبح في العصر الحديث ذي الأساليب الميكانيكية أقل قيمة من بعض الفنون الأخرى — والسينما على الأخص — لأسباب كثيرة منها : أنه يصور الحوادث تصويراً بطيئاً ، ويحصرها في زمان معين ومكان معين ، ويجزئ الفكرة الواحدة إلى فصول متقطعة .. ويصطنع التقديم والتأخير في ترتيب حوادثها والتضخيم في تعبيره عنها لفظاً وحركة . وهذا في مجموعه لا يطابق الواقع ولا المعقول بل لعله يتنافى معهما ! بينما السينما تعرض للناس ألواناً مجهولة لهم وتروح عن نفوسهم وتؤثر فيهم بواقعيتها ومنطقها المعقول .. الخ .

والحق أن الأمر — من الناحية الفنية على الأقل — ليس كذلك[1] .

فبطء التصوير ميزة للمسرح لأنه يهيء للمشاهد فرصة الانفعال في كل مشهد بينما السينما لتتابع اللقطات — التي لا تعدو أن تكون مشاهد — تتابعاً فظيع السرعة لا تتيح حتى مهلة التأثر .

وأيضاً حصر القصة في زمان معين ومكان معين ميزة للمسرح . إذ يضطر المؤلف إلى قصرها على أعظم حوادثها دلالة وإثارة ومغزى وبذلك تكون مركزة وخالصة من الشوائب فتزداد روعتها .

وكذلك تجزئة الفكرة الواحدة إلى فصول متقطعة ميزة للمسرح . فمن المعلوم أن المسرحية تتطور دائماً في مصطرع فكري وعاطفي وفني هو « العقدة » لذلك فإن تجزئتها إلى فصول تتيح للجمهور شيئاً من الراحة واستعادة النشاط وتتيح للمؤلف — وهذا هو المهم فنياً — الانتقال من تيار إلى آخر واستئناف التصوير كلما وصل تطور الحوادث وتعقدها إلى ما يسميه الفنيون « الطريق المسدود » بعكس السينما التي تتخطى هذه الطرق المسدودة بالانتقالات الفاجئة في قفزات آلية لا جمال فيها .

وأما ترتيب الحوادث ترتيباً يغاير الواقع بتقديم بعضها وتأخير البعض الآخر فميزة من ميزات المسرح الهامة لأنه لا يغاير الواقع على هذا النحو إلا تنظيما لحوادثه التي قد تقع كيفما اتفق وانتشالا لها من الفوضى والتماساً لتعليل حدوثها منطقياً وتهيئة لما يتوخى في العمل الفني من انسجام وتناسق .

وكذا التضخيم في الإلقاء والأداء التمثيلي من ميزات المسرح التي يعتد بها لأن في تضخيم الألفاظ والحركات — في الحدود الفنية — إجلالا لما تدل عليه من مدلولات وإظهاراً للامح الشخصيات ومواطن الانفعالات . تماماً كما ينحت النحات تمثاله

(١) عرض الأستاذ حسن محمود لهذا الموضوع في مجلة الكاتب المصري عدد ديسمبر الماضي من ناحية أخرى .